كلية : الآداب

القسم او الفرع : التأريخ

المرحلة: الرابعة

أستاذ المادة : أ.د أحمد صالح خليفة

اسم المادة باللغة العربية : تأريخ افريقيا

اسم المادة باللغة الإنكليزية : History of Africa

اسم المحاضرة السادسة باللغة العربية: تعريف الاستعمار

اسم المحاضرة السادسة باللغة الإنكليزية : Definition of colonialism

وأهم الدوافع التي دفعت الأوربيين لاستعمار أفريقيا

١. الدافع الديني

انتهى الصراع بين العرب والإمارات المسيحية في شبه جزيرة إيبيريا بخروج العرب نهائياً من أسبانيا في عام ١٤٩٢ فأصبحت الأندلس بحق ـ كما عبر عنها بعض الكتاب العرب (فردوس العرب المفقود) ـ لكن البرتغال استطاعت أن تتخلص من الوجود العربي وأن تقيم مملكة مستقلة قبل الأسبان بما يقرب من قرنين.

وحمل البرتغال لواء حركة دينية جديدة يعتبرها بعض المؤرخين امتداداً للحركة الصليبية وذلك بهدف تعقب القوى الإسلامية والاتصال بملك الحبشة المسيحى ـ الذي ذاع صيته في أوربا، وإن كانت بلاده لم تكن معروفة على وجه الدقة للاشتراك فى معركة تطويق للدول الإسلامية ودولة المماليك بالذات والقضاء على مصر وقوتها التي تتمثل فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية إلى مصادر هذه التجارة.

ولا شك في أن الحملات التي قام بها الأمير هنرى الذى اشتهر باسم هنرى الملاح (Henry the Navigator) ورحلات غيره من الرحالة البرتغال كانت كلها تهدف إلى توجيه ضربة قوية للقوى العربية بالقضاء على احتكار العرب لتجارة الشرق، وبذا تستنزف هذه الثروة التى كانت تتدفق عليهم وتضعف قدرتهم العسكرية بالتالي.

والدنيا على أن الدافع الدين وراء الحركات الاستعمارية في ذلك الوقت أن البابوية باركت هذه الحركات وبادرت بالتدخل لفض النزاع بين الدولتين

الاستعماريتين البرتغال وأسبانيا (١) .

وقد أدركت القوى الإسلامية الهدف من وراء هذا النشاط الاستعماري ولذا تصدت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغال ونشاطهم في البحار الشرقية ـ لكن هزمت الأساطيل المصرية فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ واستأنف العثمانيون الذين ورثوا السلطة فى مصر والشام والحجار من المماليك ـ القتال ضد البرتغال وحلفائهم.

ولا يقلل من حقيقة هذا الهدف اشتراك المدن الإيطالية المسيحية إلى جانب المماليك في حربهم ضد البرتغال فقد كانت أساطيل هذه المدن هي التي تقوم بنقل بضائع الشرق من موانى الشام ومصر إلى أوربا فمصلحتها الاقتصادية هي التي حتمت عليها هذا الاتجاه.

ويرتبط بالعامل الديني ـ الحركات الدينية التي شاهدتها أوربا إثر النهضة الأوربية، فقد أدت حركة الإصلاح الديني والدعوة لتخليص المسيحية من الشوائب التي ارتبطت بالكنيسة ورجال الدين في العصور السالفة ـ إلى تحطيم الوحدة الدينية لأوربا ، وظهرت مذاهب دينية كالبروتستانتية، وقامت نتيجة لذلك مذابح دينية وحروب في أوربا

أدت لهجرة الكثيرين من بلادهم - لكن لم تلبث موجة الصراع والنشاط الديني أن اتجهت إلى ناحية التبشير بالمسيحية بين القبائل في المناطق التي كانت تسود فيها الوثنية فى المستعمرات الجديدة. واتجه نشاط الجمعيات التبشيرية بصفة خاصة إلى أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية التي بدأت تلفى الأضواء على داخل القارة فكان المبشرون يسيرون عادة في ركاب المستكشفين وإن كانت بعض البعثات التبشيرية قد سبقت أحياناً في كشف النقاب عن مناطق لم تكن معروفة للأوربيين.
ونذكر في هذا المجال جهود لفنجستون (Livingstone) فقد انضم في عام ١٨٣٨ إلى جمعية لندن التبشيرية، وقد وجه نظره للعمل في جنوب أفريقيا الدكتور موفات (Moffat) ، وقد تحدثنا عن نشاطه في كشف نهر الزمبيزي وفي إثارة الرأى العام العالمى ضد تجارة الرقيق بعد أن شاهد بعينيه ما يقاسيه الأرقاء من الآلام، وقد دفعت رحلات لفنجستون ببعثات دينية أخرى من بريطانيا واسكتلندا.

وفي شرق أفريقيا كان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية نشاطها الملحوظ، ونذكر بالذات في هذا المجال جهود الأب سابيتو Sapeto) وهو من أشهر رجال التبشير الإيطاليين، وقد دخل فيما بعد في خدمة شركة روباتينو الإيطالية للملاحة وهي الشركة التي لعبت الدور الأول فى الاستعمار الإيطالي في شرق القارة .

على أن الجمعيات التبشيرية التي بدأت نشاطها بالعمل على نشر المسيحية والحضارة بين الأفارقة انغمست في ميدان الاستعمار فقد أصبح الهدف الديني يتخذ وسيلة لتبرير الاستعمار فكان كثيرون من رجال الدين دعاة للاستعمار، واشتهرت منهم أسماء متعددة في هذا المجال نذكر منهم على سبيل المثال الكاردينال الفرنسي لا فيجيري (Lavigerie).

وقد كثر في كتابات هؤلاء وأقوالهم الحديث عن النظريات الإنسانية والأبوية ودور الرجل الأبيض الذي عبر عنه بالأب الأبيض White Father) أو الأخ الأكبر (Older Brother) لكن أثبتت الأيام أن الأمر لا يخرج عن كونه قناعاً يغطى به الاستعمار وجهه القبيح. وفي كثير من الأحيان حدث أن انعكست النظرية المعروفة فكانت البعثات التبشيرية ممهدة للاستعمار وليس العكس (The ((Flag Followed the Missionary وقد أشار لينين إلى ذلك فذكر إن تأثير الدين فى السيطرة على الشعوب تأثير مسرحي، فالمسرح يبدأ أول ما يبدأ بالإرساليات الدينية ثم يتبعها علماء الأجناس البشرية والتجار وأصحاب الامتيازات ورجال الإدارة، فبينما تتوسل الإرساليات الدينية إلى الوطنيين أبناء المستعمرات بأن يكنزوا كنوزهم في السماء ولا يأكل صدأ، نرى التجار وأصحاب

الامتيازات ورجال الإدارة يحصلون على معادن بلادهم وعلى مصادر الثروة الطبيعية في أرضهم ويقضون على فنونهم وحرفهم وصناعاتهم الوطنية . لكن من الإنصاف أيضاً أن نذكر لهذه البعثات التبشيرية جهودها في مجال التعليم ومجال العلاج بالذات.

٢. الرق

كان الهدف من حركة الكشوف الأولى الوصول إلى الشرق بغرض الحصول على بضائع الشرق المطلوبة في أوربا، ولذا اهتمت البرتغال التي بدأت صفحة الاستعمار الأوربي في العصر الحديث بإنشاء مراكز تجارية أو حصون عسكرية على الساحل الغربي لأفريقيا أو بالقرب منه حتى أطلق على الاستعمار البرتغالي في ذلك الوقت تعبير (استعمار البهار إشارة للهدف منه ـ لكن الأمر تحول بسرعة فأصبحت السلعة المتداولة هى الإنسان الأفريقي (العاج الأسود) بالإضافة إلى بضائع أفريقية أخرى كالذهب والصمغ والعاج .

ورغم أن البداية التي افتتحت بها البرتغال صفحة السرق في العصر الحديث تبدو في مظهرها إنسانية متصلة بالدافع الديني إذ ادعت البرتغال أن هدفها هو إبعاد الأفارقة الوثنيين عن أجوائهم الأفريقية لتلقينهم مباديء المسيحية ليعودوا إلى بلادهم ليكونوا رسلاً لنشرها ـ فلا شك في أن هذا لا ينفى أن البرتغال هم مؤسسو مدرسة الرق بكل مساوئه فى العصر الحديث فقد تطور الأمر حتى أصبح الساحل الغربي لأفريقيا مورداً هاماً للأيدى العاملة التي إحتاجها الغرب لتعمير العالم الجديد (١) . رحتى نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال هى التي تحتكر تجارة الرقيق

ونقوم بتمويل أملاكها والأملاك الأسبانية وغيرها بحاجتها من الرقيق الأفريقى وكانت في لشبونة سوق كبيرة للرقيق تمد العالم الجديد بحاجته منهم. ولما إزدادت الحاجة للرقيق الأفريقى ـ اتجه البرتغال لتسليح أتباعهم ممن أطلق عليهم لفظ (الجلابة) بالأسلحة النارية لمضاعفة قدرتهم على القنص فقد كان البرتغال يفضلون عدم المخاطرة بأنفسهم بالتوغل للداخل ـ طالما أنهم يستطيعون عن طرق أتباعهم المسلحين الحصول على حاجتهم من الرقيق وهم مطمئنون في مراكز هم الساحلية ولذا أطلق بعض المؤرخين على القرن السادس عشر في أفريقيا تعبير (عصر البنادق) فقد انتشر استخدام البنادق في القارة بعد أن كانت الأسلحة البدائية كالرمح والسهام هى الأسلحة التي عرفها الأفريقي قبل ذلك،

وهكذا أصبح الرقيق أغلى سلعة إكتشفها القوى الاستعمارية في أفريقيا. ومع ذلك لم تستطع الجهود التي بذلتها البرتغال أن تسد طلبات الدول الأوروبية الأخرى المتزايدة للرقيق فدخل الهولنديون والفرنسيون والإنجليز والدانمارك وغيرهم من الأوربيين هذا الميدان إلى جانب البرتغال ليسدوا الطلبات المتزايدة للأيدي العاملة الرخيصة للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا.

واتجهت هذه الدول لبسط سيطرتها على مناطق معينة من الساحل الأفريقى أو في الداخل لتضمن حصولها على حاجتها من الرقيق ـ وتشكلت شركات خاصة لنقل الرقيق الأفريقى وما يرتبط بهذا العمل من نشاطات أخرى. وقد بلغت أرباح هذه التجارة ـ تجارة الرقيق ـ حداً خيالياً فمثلاً كانت سفن الرقيق البريطانية تقوم فى الجولة الواحدة برحلة مثلثة فتنقل الفائض من المصنوعات الإنجليزية لغرب أفريقيا حيث تستبدلها بشحنات آدمية تسعير بها المحيط الأطلنطى فتفرغها فى مناطق العمل بأمريكا ثم تعود بالتالي البريطانيا محملة بالسكر والقطن الخام والتبغ وغيرها من محاصيل هذه الأقاليم، وفى ١.

فاحش الذى بدت مظاهره فى بعض المدن والموانى الأوربية فإذا كان الهولنديون يرددون فى تراثهم أن مدينتهم العظيمة (امستردام) قد بنيت على عظام الرنجة التي اشتهروا بتسويقها ليس بعيداً عن الصواب أن تقول بالمثل إن الشبونة فى البرتغال وليفربول فى انجلترا قد بنيت على عظام الرقيق الأسود وبدمائه (١).

وقد حاول بعض الباحثين أن يصل إلى إحصاء تقريبي لعدد الرقيق الذين وصلوا للمستعمرات الأوروبية منذ بدأت حركة الاسترقاق في القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر ـ لكن الأرقام اختلفت ولم تستطع أن تصل لأعداد تستند على أدلة قوية فقد قدر ما وصل المستعمرات الأوربية.